﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

خطابُ الحِرمانِ بعد نداءِ الحسرةِ والألمِ

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقة نداءَ المنافقين لأهل الإيمان بقولهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾، وهو نداءُ حسرةٍ، جاءهم الجواب: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم بيننا بأجسادكم، لكنّكم فارقتمونا بقلوبكم؛ جاءت هذه الآيةُ حاملةً خطابَ الحِرمان من النّجاة، وأنّهم هالكون لا محالة، ولا سبيلَ إلى الخلاص من النّار، فلا فديةَ تنفعُهم، ومصيرُهم إلى جهنّمَ وبئس المصير[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِدۡيَةٞ﴾: (فدى) في إحدى دلالتيّه: أن يُجعَل شيءٌ مكان شيءٍ حمًى له[2]. والفدية: "ما يقي به الإنسان نفسَه من مالٍ يبذله في عبادةٍ قَصَّر فيها، يُقال له: فدية، ككفّارة اليمين، وكفّارة الصّوم"، ويُقال: فديته بمالي ونفسي أفديه فداء، كأنّك تحميه بنفسك، أو بشيءٍ عوضًا منه، وهو فكاك الأسير أيضًا[3]؛ لأنّ الأصل في هذا الفكاك أن يقدَّم قدرُ الأسير؛ أيّ: قيمته، أو ما يكون معادلًا لحجمه الحِسّيِّ أو المعنويّ، ثمّ جرت العادة أن تكون الفدية غُرمًا مقابلًا للمخالفة، وللنّفس من العقوبة، وجميع ما في الكتاب الكريم من الفداء والفدية وما اشتقّ من ذلك هو ما يقدّم لدفع الضّرر كالأسر والذّبح والذّنب المستوجب للعقوبة[4]. ومعنى ﴿فِدۡيَةٞ﴾ في الآية الكريمة: البدل الذي يقي أنفسَكم من العذاب[5].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 456.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فدى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فدى).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 249.

2) ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾: (أوى) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على التّجمع والإشفاق[1]. يُقال: أوى المرء إلى منزله يأوي، ومعناه: التّجمّع والانضمام، ومنه: المأوى، ويشمل كلّ مكانٍ يأوي إليه الإنسانُ أو غيرُه ليلًا أو نهارًا[2]، والأصل في (المأوى) المَيل، وسُمّي منزل الرّجل مأواه؛ لأنّه المكان الذي يميل إليه فيُقيم فيه، ويأتي بمعنى الإنزال، فآويته بمعنى: أنزلته[3]، وزيد على الضّمّ في معناه المِحوريّ: الضَّعفُ، فهو ضمٌّ مع ضعفٍ ما، كالإيواء للنّصرة والحياطة كالأوْي إلى المنزل والمسكن؛ فإنّ فيه ضعفًا لحاجته[4]. والتّعبير به هنا للكافرين على سبيل التّهكّم، فإنّ المأوى هنا واقعٌ لعذابهم وليس لحمايتهم، ومعنى ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ في الآية: مقامُكم ومنزلُكم الذي تصيرون إليه[5].

3) ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على قُربٍ[6]، يُقال: تباعدَ بعد ولْيٍ؛ أيْ: قُرْب، وجلس ممّا يليني؛ أيْ: يقاربني، ويدلُّ على اللّزوم مع شيءٍ من جهة الاشتمال وعدم الانفكاك، وكما هو حال الوَليِّ فإنّه مُلازمٌ لمولاه لا ينفكُّ عنه، ومصدره: الولاء، من "واليتُ بين الشّيئَيْن موالاةً وولاءً...، والولاية: الإمارة، والوليُّ: خِلافُ العَدوّ"، وتأتي الولاية بمعنى: النّصرة؛ أيْ: ينصر بعضهم بعضًا في الدّنيا، أمّا الحقّ سبحانه فهو الوَليُّ الحقيقُ بهذا الاسم. فمعنى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ في الآية: "أيْ: وليّكم، وقيل: هي أولى بكم لما أسلفتم من الذّنوب، والمعنى هي التي تلي عليكم؛ لأنّها ملكت أمركم، وأسلمتم إليها؛ فهي أوْلَى بكم من كلِّ شيءٍ"[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الله تعالى في هذه الآية: لو أنّ أحدكم أتى بملء الأرض ذهبًا، ومثله معه ليفتديَ به من عذاب الله تعالى في هذا اليوم، ما قُبِلَ منه فداءٌ، ومأواكم النّار، فهي مصيركم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (أوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، (أوى).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

فديةٌ مردودةٌ ومصيرٌ إلى نارٍ ممدودةٍ

المحتوم، ومنقلبُكم الذي لا محيدَ عنه؛ فذلك المأوى أوْلى بكم من كلِّ منزلٍ، بما حملتم من كفرٍ وريبٍ، وبئس القرارُ والمصيرُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بالفاء في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دون غيرِها من حروف العطف لتعدُّد معانيها؛ فتحتمل أن يكون المُراد بها السّببيّة لا لمجرّد التّعقيب، إذ يُبْعِد السّياقُ أن يكون الامتناع عن الأخذ مُتأخّرًا عن الغرور زمانًا؛ بل هو مترتّبٌ عليه سببًا؛ لأنّ الغرور هو الذي أفضى إلى هذا الحرمان، لا أنّ الامتناع جاء بعدَه مباشرةً من حيث التّرتيب الزّمنيِّ[2]. ويحتمل أن يكون هذا القول صادرًا من الله تعالى خطابًا للمنافقين، على وجه التّلقين المُقترنِ بالتّأنيب؛ تأييسًا لهم من التّعلُّق بوَهْم اقتباس النّور، وتنبيهًا على انقطاع الرّجاء؛ فتكون فاء ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ واقعةً موقع العطفِ؛ لاتّحاد مقام الخطاب[3]، إذ تُعْطَف جملةُ التّلقين الإلهيّ على ما قبلَه من كلامهم؛ لاتّساق الحديث في مشهدٍ واحدٍ يجمع الفريقيْن. ويجوز أن يكون معناها فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن شرط مُقدَّرٍ دلّ عليه السّياق، تقديره: إذا انكشفت لكم حقائقُ حالكم في الدّنيا، وتبيّن لكم خسرانُكم فيها، وطلبتم أن تعلموا مآلكم في الآخرة، فالجواب: اليومَ لا يُؤخذ منكم فداءٌ ولا شفاعةٌ[4].

عطفُ التّلقينِ تيئيسًا لهم من الطّمعِ في نيلِ شيءٍ من نورِ المؤمنين

بلاغةُ التّعبيرِ بجملةِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾:

يجمع التّعبير بجملة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ بين احتماليْن بلاغييْن رفيعيْن؛ فإمّا أن يكون تتمّةً لخطاب المؤمنين

احتمالُ الخطابِ بينَ صوتِ المؤمنين وحُكمِ ربِّ العالَمين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 180.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 387.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 468.

للمنافقين، استكمالًا للتّوبيخِ والتّنديم، وقد صار عدم قَبول الفداء معلومًا في المَحشر بما يُسمع من قضاء الله تعالى، أو ممّا تقرّر في النّفوس من أخبار الوحي. ويحتمل أن يكون هذا القول صادرًا من الله تعالى؛ تلقينًا إلهيًّا يقطع الطّمع، ويؤيّسهم من اقتباس حظٍّ من نور المؤمنين[1].

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ (اليوم)، ودلالةِ تعريفِهِ:

اليومُ المعلومُ الذي يزولُ فيه التّكليفُ

جاء التّعبيرُ بلفظ (اليوم) دون غيره من الأوصاف؛ لأنّه اليوم الفاصل الذي تُطوى فيه صحيفة التّكليف، فلا يُقبل فيه إيمانٌ مُتأخِّرٌ، ولا توبةٌ بعدَ انتهاء الحياة؛ لأنّ زمن الامتحان قدِ انقضى، وانكشف الإلحاد[2]، ووقع الجزاء. وجاء مُعرّفًا بـ (أل) لأنّه اليوم المعلوم المُحَدّد بيوم القيامة[3] الذي يحمل في طيّاته الحَسْم والفصلَ؛ لأنّه يومٌ شديد القسوة فلا عذر للمنافقين؛ فكانت المعرفةُ دالّةً على شدّته وتفرُّده، كما لو قال: في هذا اليوم المبين الذي لا يغفل عن قسوته أحدٌ، ولا يُغتفر فيه تقصيرٌ.

دلالةُ تصديرِ الجملةِ بلفظِ (اليوم):

تقريعُ المنافقين بذِكرى ذلك اليومِ العظيمِ

جاء لفظ (اليَوْمَ) في صدرِ الجملةِ؛ ليُقرِّعَهم بذِكرى ذلك اليوم العظيم، وليوقظَ فيهم ما كانوا يُضمرونه في الدّنيا من نفاقٍ ورياءٍ، حين كانوا يتعايشون مع المؤمنين تقيّةً وتربّصًا، وفضحهم الحقُّ سبحانه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ [التّوبة: 98][4].

دلالةُ تعلُّقِ الظّرف (اليوم) بانتفاءِ الأخذِ:

نَصْبُ الظّرفِ بالفعلِ إيذانٌ بالانتهاءِ وانقطاعِ الرّجاءِ

تعلّقُ الظّرفِ (اليوم) بالفعل المَنْفي ﴿لَا يُؤۡخَذُ﴾ يُفيدُ تخصيصَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.
(2) ابن عادل، اللّباب: 18/ 476.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 405.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.

الامتناعِ بهذا اليوم العظيم، فالفعل هو الذي نصبَ الظّرف[1]، دالًّا على أنّ الأخذ ممتنعٌ وقوعُه في هذا الظّرف البتّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى حسم الجزاء، وانقطاع الرّجاء.

سِرُّ التّعبيرِ بالأخذِ في قولِهِ: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ دون (لا يقبل):

تصويرُ الفداءِ بالمحسوسِ وإغلاقُ بابِ الفكاكِ الموهومِ

آثَر التّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ نفي الأخذِ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بدلًا من نفي القَبولِ؛ لما في الأخذ من دلالةٍ حسّيّةٍ مباشرةٍ تُصوِّر الفداءَ بمالٍ يُدفَع ليَفتديَ به صاحبُه نفسَه من العذاب، فتنسجمَ الصّيغةُ مع صورة النّجاة المُفترَضة، وتجسّدَ المعنى بوضوح، ولأنّ (الفدية) في أصلها تدور على ما يُبْذَل فداءً عن النّفس، ولا تقتصِر على المال فقط، بل قد تكون صيامًا أو صدقةً أو نُسُكًا، ولو قيل: (لا يُقبل منكم فدية) لانفتح المعنى على كلِّ صور الفدية المشروعِ قَبولُها في الدّنيا[2]. وليس هذا مُرادًا في هذا الوقت؛ لأنّه فات الأوان.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الأخذِ مَنفيًّا في قولِهِ: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾:

ديمومةُ المَنعِ وتجدّدُ الإذلالِ في زمنٍ لا رجاءَ فيه

جاء التّعبيرُ بفعلِ الأخذ مضارعًا مَنفيًّا في قولِهِ: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّدِ والاستمرار، فالمضارع هنا يُصوّر الحَدَث كأنّه جارٍ في لحظته، وكأنّ مشهدَ المنع من الفِداء يتكرّر ويُشاهد؛ فيُضفي على الجملة طابعًا حيًّا مستمرًّا، يُجسّد دوامَ الحِرمان، واستمرارَ انقطاعِ الرّجاء، وفي هذا التّصويرِ إمعانٌ في الإذلال والتّقريع.

أثرُ تعدُّدِ القراءاتِ في قوله: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾:

تكاملُ القراءتين في أداءِ المعنى

في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ قراءتان؛ أولاهما: قراءة ابن عامر وأبي جعفر ويعقوب: بالتّاء: ﴿لَا تُؤْخَذُ﴾[3] مُؤنثةً مُفردةً، فاعتمدوا بذلك على تأنيثِ الفديةِ، حيثُ تقتضي القاعدةُ النّحويّةُ توافقَ الفعلِ مع المفعول به من حيثُ التّذكيرِ والتّأنيثِ، ثانيتُهما:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 107.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّيّ: 11/ 342.
(3) ابن مهران، المبسوط، ص: 429.

قراءة الباقين ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بالياءِ، ووجه ذلك أنّ المُراد الفِداءُ بوجهٍ عامٍّ[1]، باعتبارِه اسمًا مُذكّرًا جامعًا لمعاني الفِديةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

سدُّ بابِ الأخذِ مُطلقًا

دلّ التّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ المَنفيّ ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ مبنيًّا للمعلوم[2] على الفعلِ نفسِهِ، وهو الامتناعُ التّامّ عن الأخذِ، لا على فاعلٍ مُعيَّنٍ يأخذ أو يمتنع، فالمَبنيّ للمفعول يُفيدُ سدَّ بابِ الأخذِ مُطلقًا[3] دون تخصيصٍ أو استثناءٍ، ليكون الحَظْرُ شاملًا.

بلاغةُ الكنايةِ: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾:

قطعُ طريقِ الفِداءِ، واستحالةُ النّجاةِ من العذابِ

التّعبير في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ هو من باب الكناية بنفي أخذِ الفدية؛ جريًا على ما هو شائع من أنّ الأسير أو الجاني قد يُفلِتان من العقاب بدَفع فديَةٍ[4]، فهنا جاء النّفي ليؤكّدَ استحالةَ النّجاةِ أو الإفلاتِ.

فائدةُ نفيِ أخذِ الفديةِ منهم ذلك اليوم:

التّذكيرُ بما كان من وحيِ القرآنِ وبلاغِ النّبوّةِ

نفيُ أخذِ الفدية في هذا اليوم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾، يُعدّ توكيدًا لما استقرّ في أعماق نفوسهم، ممّا علموه من وحي القرآن، وبلاغِ النّبيّ ﷺ[5] على أنّ ذلك من تمام خِطاب المؤمنين للمنافقين.

دلالةُ تقديمِ ﴿مِنكُمْ﴾ على ﴿فِدْيَةٌ﴾:

التّأكيدُ على شِدّةِ حِرمانِهم

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ واردٌ لتوكيد التّخصيص والاهتمامِ بالمُخاطَبين؛ أيْ: أنتم لا غيرُكم لا تُقبل منكم فديَةٌ، ولو قُبِلَت من غيركم،

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 56.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 463.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388 - 389.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388 - 389.

فالمقصودُ حصرُ النّفي فيهم؛ إظهارًا لشِدّة الحِرمان، وإبرازًا لمكانتهم المنكوسة.

سِرُّ التّعبيرِ بكافِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿مِنكُمْ﴾:

المـــواجـــهـــةُ الصّريحةُ وقعُها شديدٌ وأليمٌ

التّعبيرُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ فيه إشارةٌ مباشِرةٌ إلى المنافقين، إذِ الخطاب موجَّهٌ إليهم في هذا السّياق القرآنيّ[1]؛ لتقع المواجهة صريحةً، ويكونَ الوعيدُ أوقعَ وأشدَّ، فيُصوَّرَ حرمانَهم من النّجاة، وكأنّه يُقال لهم بأسمائهم: أنتم لا يُؤخَذ منكم فداءٌ ولا من الذين كفروا، ولا ينفعكم ما كنتم تُخفونه من نفاقٍ أو تظاهرٍ بالإيمان.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿فِدْيَةٌ﴾:

اتّساعُ دلالتِها لشُمولِ كلِّ ما يُفْدَى به

التّعبير بلفظ ﴿فِدْيَةٌ﴾ دون الاقتصار على كلمات مثل: (عدل) أو (مال) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، يكمن في شموليّة المعنى، واتّساع دلالته، إذِ الفدية لا تقتصر على المال فقط، بل تشمل كلَّ ما يُبْذَل فداءً لحفظِ النّفس من الهلاك أو النّجاة من النّار أو فَكِّ الأسر، سواءٌ كان ذلك مالًا، أو صيامًا، أو صدقةً، أو نسكًا[2]، بهذا التّعبير العامّ تُغطّي الفديَةُ كلَّ صورِ التّكاليف التي قد تُقدَّمُ للفِداء. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالفديَة دونَ العَدْل: أنّ الفدية أعظمُ من العَدْل وأوسعُ دائرةً؛ إذِ الفديةُ هي ما يجعل بدلَ الشّيء ليعودَ به إلى حالته الأولى، سواءٌ كان ذلك البدلُ مثلَ المُفْدَى أو أنقصَ منه، أمّا العَدْلُ فهو ما كان مثلًا لما يُفدَى تمامًا، لا يزيد ولا ينقص[3]؛ فجاء التّعبير بالفدية في الآية؛ لأنّ المقام مقامُ نفيٍ عامٍّ يشمل كلَّ ما قد يتوهّمه الإنسانُ يومَئذٍ من فداءٍ، سواءٌ أكان معادلًا

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 342.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 342.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 399.

لما يُفتَدى به أم دونه؛ ليُبيّن أنّه لا يقبل منهم أيَّ بدل، ولا أيَّ خلاصٍ، ولا أيَّ مهربٍ، فَسَدّ عليهم بابَ كلِّ فداءٍ مهما كانت صورتُه، وأغلق عنهم أبوابَ النّجاة جميعًا.

دلالةُ تنكيرِ ﴿فِدۡيَةٞ﴾:

شـمـولُ نفي الفِداءِ لجميعِ صورِهِ وأنواعِهِ

جاء لفظُ ﴿فِدۡيَةٞ﴾ مُنكّرًا ولم يأت معرّفًا؛ لأنّ التّنكير يُفيد العمومَ والشّمولَ، ليُبيّنَ أنّ أيَّ شيءٍ يُظنّ أنّه يَصْلُح فداءً، سواءٌ كان مالًا أو توبةً متأخِّرةً أو ادّعاءَ إيمانٍ[1]، كلُّه مردودٌ لا يُقبل، فجاء بها نَكرةً لتتناولَ جميعَ الصّورِ والأنواعِ المُمْكِنة. ولأنّ التّنكير دالٌّ على أيّ نوعٍ من أنواع الفداء، صغيرًا كان أو كبيرًا، مالًا أو عملًا، قليلًا أو كثيرًا، حسنًا أو قبيحًا، إذِ المقصود نفيُ الفكاك مطلقًا، بأيّ بدلٍ يُقدَّم لإنقاذ النّفس؛ فجاء التّنكير ليَعُمّ كلّ ما يُظنّ أنّه يُفتدَى به؛ لأنّ الله غنيّ عن الفِداء، ولأنّ زمن العمل قدِ انقضى[2].

بلاغةُ عطفِ جملةِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

جَمعُ الفريقيْن في سياقٍ واحدٍ لما بينهما من الاشتراكِ في الكفرِ

تظهر بلاغةُ عطف جملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ على ما سبق، في دلالتها على معانٍ متعدّدة؛ منها: أنّ عطف الكفّار على المنافقين جاء إعمالًا للفصل الدّقيق بين الباطن والظّاهر، فالمنافقُ كافرٌ في جوهره وأصلِه، إلّا أنّ كفرَه مَخفيٌّ في الباطن، بينما كُفرُ الكافرِ ظاهرٌ جليٌّ لا يغيب، فصار الكافرُ غيرَ المنافق بحُكم الفرق في المظهر، وهذا التّمييز الرّفيع يُبَرّر حُسنَ العطف، ودِقّة البيان[3]. ويجوز أن يكون العطف هنا من باب عطف الأعمّ على الأخصّ، إذِ المنافقون هم من الكافرين، لكنْ لشِدّة خطرهم وغِلظتهم كما بيَّنَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 459.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

145]، جاء العطفُ مُؤسّسًا على الكفّار، ولا يلزم من نفي قَبول الفديةِ عن المنافقين نفيُها عن الكافرين عمومًا[1]. ويجوز أن يكون عطفُ جملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على ما سبق في شأن المنافقين؛ من باب دمج الفريقيْن في سياقٍ واحدٍ من التّوبيخ والتّنديم، مُظهِرًا وحدة العقاب، واشتراكهما في حقيقة الكفر[2]، على الرّغم من اختلاف الظّاهر، مؤكِّدًا أنّ الجزاء واحدٌ، لا فرقَ فيه بين مَن أظهر الكفرَ ومَن أبطنَه.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عطفٌ اعتراضيٌّ يُفيد تعليلَ أن لا محيصَ لهم من عذابِ الكفرِ

جاء موقع جملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطفًا مُعترِضًا جَرَّته المناسبةُ، إذ قُصِدَ منها تعليلًا مُحكمًا يُبيّن أنّه لا مهربَ لهم من عذاب الكفر، مثل حال الذين أظهروا كفرهم[3]، مؤكّدًا وحدةَ المصيرِ في العقاب بين المنافقين والكافرين.

دلالةُ إعادةِ (لا) النّافية مع قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الاستقلالُ في الذِّكرِ لدَحْضِ تَوهُّمِ التّخصيصِ للمنافقين

في إعادة (لا) مع قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تنبيهٌ على الاستقلال في ذِكرِهم هنا، دفعًا لتوهُّم تخصيصه بالمنافقين؛ لأنّ ما قبلَه مُختصٌّ بهم لتظاهرهم بالإيمان[4]، فالإعادةُ هنا فائدتُها التّوكيدُ، واستقلالُ كلٍّ حُكْم عن الآخر؛ لبيان شناعةِ مُرتكبِ كلِّ فئةٍ.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ الفعل المَنفي ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ مع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

استبعادُ الكافرين لمجاهَرَتهم بالكفرِ بخلافِ المنافقين

لَمّا كان نفيُ فعلِ أخذِ الفدية موجّهًا بالأصل إلى المنافقين؛ لكونهم مع المؤمنين ظاهرًا، بخِلاف الكَفَرة المُجاهِرين، فلا مجالَ لهم لالتماس النّور من المؤمنين؛ فلذا خصّ المنافقين بالذّكر مع الفعل ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾، ولم يذكره مع الكافرين[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 388.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 453.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 453.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

هم الذين أعلنوا الـكُـفـرَ حـتّـى عُرِفوا به

جاء التّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين)؛ إيذانًا بأنّ صلة الاسم الموصول هي عِلّةُ استحقاقهم للجزاء المذكور، وهو انتفاء أخذِ الفدية منهم، ثمّ مآلهم عذابُ جهنّمَ، وبئسَ المصير. ويجوز أن يكون التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الكافرين مُتعلّقًا بتحديد القصد وتصويره بدقّة، إذ أراد تعالى الإشارةَ إلى الذين أظهروا الكفرَ بوضوحٍ، وجهروا به، فأصبحوا حالةً معلومةً للنّاس[1]، لا غموضَ فيها ولا لبسَ، فكانت هذه العبارة تبيّن حالَهم بجَلاء.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

تـأكـيـدُ ثـبـوتِ الكُفرِ، وحتميّةُ الجزاءِ

الخطاب بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ دون المضارع (يكفرون) يتمثّل في التّوكيد على ثبوت حالة الكفر، إذ يُشير الفعلُ الماضي إلى واقعٍ ثابتٍ قد تحقّق، وهو أنّهم قد كفروا بالفعل، فلا مجالَ للإنكار أو التّغيير، ممّا يُبيّن استحقاقَهم للعَذاب، وامتناعَ قَبولِ الفدية، أمّا الفعل المضارع فيوحي بالكفر المُستمرّ أو الجاري المُحتمَل للانقطاع، وهو غير كائنٍ بعدَما تقرّر العذاب عليهم حتمًا.

بلاغةُ الاحتراسِ بجملة ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

مـصيرُ المنافقين والـكـافـريـن في عـــدمِ قَـبـولِ الـفـديـةِ منهم واحدٌ

القارئ للجملة السّابقة لأوّل وهلةٍ يَظنّ أنّ المنافقين والكافرين الصّرحاءَ واقفون في مقامٍ واحدٍ عند أبواب جهنّم، فيأتي قولُه تعالى: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ احتراسًا بليغًا يمنع توهّم أنّ حُكْمَ عدمِ قَبولِ الفديةِ خاصٌّ بالمنافقين فحسب، المتعلّقين بأقلّ طمعٍ، فذِكْرُ الكافرين ليس استطرادًا عابرًا[2]؛ بل تأكيدٌ وشمولٌ يجمع الفريقيْن في مصيرٍ واحدٍ، لا يختلفون فيه، ولا يُستثنى أحدٌ منهم من وعيد اللّه تعالى، ولا من الذين كفروا ولا منكما معًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.

سِرُّ تقديمِ المنافقين على الكافرين في انتفاءِ أخذِ الفديةِ:

المنافقون أشدُّ ضررًا على المؤمنين من الكافرين

قدّم التّعبيرُ القرآنيُّ المنافقين على الكافرين؛ لأنّهم أشدُّ ضررًا على المؤمنين من المشركين، إذ إنّ الكافر عدوٌّ ظاهرٌ يمكن الاحترازُ منه، ومجاهدتُه بوضوحٍ، أمّا المنافق فلا يَحْسُن الاحترازُ منه ولا يُجاهَد، بل يُضْمِر الشّرَّ في طيّات الخفاء، فكان شرُّهُ أخطرَ وأكثرَ تأثيرًا، فأوجبَ ذلك أن يقدّم على المشرك في الذّكر والحُكم[1].

وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّقديم: أنّه ﷺ لمّا ذكر الجزاء المُعَدّ لكلّ مَنْ لم يُؤمن، قدّم المنافقين، ثمّ أتبعهم بالكافرين، وهو تقديمٌ غرضُه رفعُ توهُّمِ أنّهم أقلُّ منزلةً من الكافرين في مبلغ العذاب، لما كان منهم من إيمانٍ ظاهرٍ، بل هم كافرون حقيقةً، وإن حَسِبوا في ظاهر أمرهم أنّهم من المؤمنين[2].

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ يقطعُ الرّجاءَ ويُقَرِّر المصيرَ

فصَلَ النّظمُ القرآنيّ جملةَ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ عمّا سبق من الآية؛ لأنّها واردةٌ موردَ الاستئنافِ البيانيّ المُحْكَم، كأنّ القائل بعد أن بيّن جزاءهم قال مستفهِمًا: فأين موقعُكم؟ فأُجيب ببيانٍ صريحٍ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أي: مكانكم ومسكنكم الثّابت، ومجمعكم المحتوم هو ﴿ٱلنَّارُ﴾[3]؛ ليؤكّدَ بذلك ثباتَ العذابِ ودوامَه لهم بلا ملجأ. وممّا يُذْكَر في سرّ الفصلِ: أنّه لمّا كان قولُه تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ توكيدًا حاسمًا لقوله: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾؛ جاء فصلُ الجملة لإبراز استقلالِ المعنى، وشدّةِ التّقرير، ولم يَحْسُن العطفُ، إذ إنّ الفدية إنّما تُبذل اتّقاءً للنّار، فإذا نُفي قَبولُها، فلا مَفَرَّ ولا مأوى إلّا النّار ذاتها[4]؛ فجاءت الجملةُ فاصلةً كالسّيف تقطع الرّجاءَ، وتعلنُ المصيرَ المحتوم.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 9/ 506.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 763.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 763.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(المأوى):

المأوى يُلْجَأ إليه اضطرارًا

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بـ(المأوى) دون (المسكن) في قوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لأنّه يَحْمِل دلالةً أعمقَ وأشدّ وقعًا، فالمأوى: هو المكان الذي يُلجأ إليه، ويُصار إليه اضطرارًا، لا مجرّدَ مكانِ إقامةٍ، ويُكَنَّى به عنِ الاستقرار الدّائم، والخلودِ الذي لا انفكاكَ عنه[1]، وأنّ النّارَ صارت مرجعًا نهائيًّا لهم يُؤوون إليه، ويُحبَسون فيه أبدًا. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبيرِ بالمَأوى دونَ المسكنِ: أنّ الإيواء في أصل معناه هو ضَمُّ الشّيء إلى الشّيء مع ضعفٍ فيه، كالنُّصرة والرّعاية والحياطة[2]، فجاء استعمالُه هنا على سبيل التّهكّم البليغ؛ إذِ المَأوى في الاستعمال المألوفِ يوحي بالحماية واللّجوء إلى مكانٍ آمنٍ، لكنّه في هذه الآيةِ جاء مقلوبَ الدّلالة، فصار مأواهم النّارُ نفسُها، لا مأوى يحميهم، ولا مكانَ يُؤويهم؛ بل مقامُ عذابٍ دائمٍ لا انفكاكَ عنه. ومعنى ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أيْ: مَقرُّكم ومنزلُكم الذي تصيرون إليه، وتستقرّون فيه[3]، فكان اختيارُ اللّفظِ أوقعَ في النّفوس، وأشدَّ تهويلًا، إذ يُصَوِّرهم وكأنّهم قد أُجيروا وأُويَ بهم إلى النّار إيواءً لا خلاصَ بعدَه.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾:

إضافةُ التّخصيصِ للتّقريعِ والتّوبيخِ

غالب حال الإضافة عند العرب تكون بمعنى اللّام، وهي لامٌ دالّةٌ على المِلكِ والاختصاص[4]، والوارد منه قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ كأنّ النّار صارت مِلكًا لهم، ومَقرًّا خاصًّا بهم، لا يفارقونه ولا يُفارقهم، كما تُفيد التّهديد والتّقريع، وكأنّها قد أُعِدّت لهم خصيصًا، فهم أهلها ومُستحِقّوها بلا شريكٍ، وفيه توبيخٌ شديدٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، و(أوى).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.
(4) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 2/ 126.

سِرُّ تقديمِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ على ﴿ٱلنَّارُۖ﴾:

لا مَقرَّ لكم سوى النّار

سِرُّ تقديم ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ على ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ يكمن في التّأكيد على حتميّة الأمر وثباته، إذ لا مَقرَّ لكم غيرُها[1]، وأنّها وحدَها المكانُ الأخير الذي تؤوون إليه، وتُقيمون فيه، وتخلدون خلودًا أبديًّا، فهي ولا غيرها الأوْلى والأحقّ بكم، فلا ملجأ ولا مهرب سوى ذلك المصير المحتوم[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ دونَ الفعليّةِ:

الدّلالةُ على الثّباتِ والاستمرارِ في النّارِ

التّعبيرُ بالاسميّة في قوله: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ دون الفعليّة يحمل دلالةً قويّةً على الثّبات والاستمراريّة، إذ إنّ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلنَّارُۖ﴾ خبرُه، والقاعدة النّحوية تقول: المبتدأ إمّا أن يكون مساويًا للخبر، أو أخصَّ منه، فإذا كان مساويًا، فالمُراد أنّ المأوى هو النّار ذاتُها بلا فرقٍ، ممّا يدلّ على الخلود في العذاب، وإن كان أخصَّ، يعني: وجودَ المأوى يستلزم وجودَ النّار؛ لأنّ وجود الأخصّ يفيدُ وجودَ الأعمّ[3].

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ دون (جهنّم) أو (السّعير):

نارُ الجزاءِ تقابلُ نارَ الجَفاءِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ دون (جهنّم) أو (السّعير)؛ لأنّها تُحيلُ إلى حقيقة الإحراق جزاءً وفاقًا، فهي تحرقهم كما كانوا يُحرقون قلوبَ الأولياء في الدّنيا، بإيثار الشّهوات، وإهدارِ حقوقِ المحتاجين[4]، فكان الجزاءُ من جنس الفعل، نارٌ تقابل نارًا.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلنَّارُۖ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ للعهد، إذِ المُراد بها نارُ جهنّمَ المعلومةُ في أذهانِ المؤمنين والكافرين على السّواء، حتّى غدت عَلَمًا على دار العذاب، ومَقرِّ السّعيرِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.
(2) مجموعة مؤلّفين، التّفسير الوسيط: 9/ 1291.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 277.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

المبالغةُ في التّهكّم بالمنافقين

في قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ كنايةٌ تهكّميَّةٌ مُفعَمةٌ بالسُّخريَة المُبطّنة، يوحى بها أنّ النّار صارت لهم مأوًى وملاذًا، كأنّها النّاصر والحامي، لا غيرُها، وهو من أبلغ وجوه التّهكّم، إذ يُصوَّر العذابَ مأوًى، واللّعنةَ نصرةً، فكما لا تحيّةَ إلّا الأذى، فلا ناصرَ لهم إلّا النّارُ نفيًا للنّاصر لهم قطعًا، كما نفى الفديةَ قبلًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالضّميرِ ﴿هِيَ﴾ عن ﴿ٱلنَّارُ﴾:

نارُ الجحيمِ وحدَها تتولّاكم ولايةَ عذابٍ لا رحمةٍ

جاء التّعبير بالضّمير ﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ توكيدًا يُفيد الحصر؛ أيْ: هي لا غيرُها[2]، فالنّارُ وحدَها "مولاكم، تتصرَّف فيكم تصرّفَ المولى في عبيده؛ لما أسلفتم من المعاصي"[3]، وفي ذلك تهكُّم مرير، يُصوّرها كأنّها وليٌّ يتولّاهم، لكنّها ولايةُ عذابٍ لا رحمةٍ، وقرابةُ جحيمٍ لا نجاةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ عن مَقرّهم في النّارِ بقوله: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

مَن كانتِ النّارُ مولاهُ فلا مولى له

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ تعبيرٌ تهكُّميٌّ مريرٌ[4]، يُصوِّرُ النّارَ في مقام الوَليّ، والمُراد: نفيُ الوَليِّ حقيقةً؛ أيْ: لا مولى لكم غيرها، ومَن كانت النّار مولاه فلا مولى له، كما يُقال: ناصرُه الخُذْلان، ومُعينُه البكاءُ؛ أيْ: لا ناصرَ له ولا مُعينَ، وهذا المعنى مُؤكَّد بقول الحقّ سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمّد: 11][5]. ويجوز أن يُفهم من (المولى) أنّه اسمُ مكانٍ من الولاية؛ أيْ: موضع القُرب والدُّنو، فيكون المعنى: هي مَقرُّكم ومَحلُّكم الذي لا فِكاكَ منه[6]، أحاطت بكم إحاطةَ الوَليّ بوَليِّه، لكن على وجه السّخط والعذاب.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 211.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 277 - 278.
(3) حقّي، روح البيان: 9/ 363.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 308.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 460.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

تصرّفُ النّارِ في المنافقين جزاءٌ مُماثلٌ لما فعلوه في الدّنيا

في قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ استعارةٌ بليغةٌ، شُبّهت النّار بوَليٍّ يتولّى أمرَهم، ويتصرَّف في شؤونهم، والمقصود: أنّها تتصرّف فيهم إحراقًا وتعذيبًا[1]، كما تصرّفوا في الدّنيا في أسبابها ومعاصيها التي أوجبتها، فكان التّصرُّف استعارةً للإحراقِ، والولايةُ استعارةً للتّمكين من العذاب.

سِرُّ اختلافِ التّعبيرِ في وصفِ النّارِ بين المولى والمأوى:

الرّجوعُ إلى النّارِ كرجوعِ المُستنصِر إلى مَن لا يَنصرُ

وُصِفت النّارُ أوّلًا بأنّها مأوى في قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أيْ: مقرٌّ وسَكَنٌ، ثمّ خُتِمت بأنّها مولى في قوله: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أيْ: مَن يُفترض فيه النّصرةُ والولاية، وهذا الاختلاف يدلُّ على التّهكُّم المرير، إذ يَرجعون إليها كما يرجع المُستنصر إلى مولاه، لينصرَه أو يفادي عنه، فاستعير المولى للمَقرِّ على طريقة التَّهكُّم[2]، على وجهٍ فيه تقريعٌ وسخريةٌ، يعكس تمامَ الخُذلان وشدّةَ الحَسْرة.

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

بئسَ المولى وبئسَ النّار التي صِرتُم إليها

دلّت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ على العطف لمُقدّر يُفهم من السّياقِ، تقديره: فبئس المولى هي، فلمّا استُكمل التَّهكُّم بوصفِ النّارِ بالمولى، عطف عليه ما يُتمّ مشهدَ الخُذلان والهلاك، فهذه النّار التي صرتم إليها[3] هي شرُّ مكانٍ يؤول إليه الإنسان.

بلاغةُ التّذييلِ بجملةِ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

تذييلٌ مُحكَمٌ يشملُ جميعَ وجوهِ العذابِ

ذُيّلتِ الآيةُ بقولِهِ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لما يحمله من إيجازٍ بليغٍ، يشمل جميعَ وجوهِ العذابِ الذي يصيرون إليه، فتُختَصر مأساةُ الخُسْرانِ والفناءِ في عبارةٍ موجزةٍ، وهي كذلك إشارةٌ ضمنيّةٌ إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.

يقينِ المؤمنين بإجابتهم لأهلِ النّفاقِ، إذْ صاروا إلى دارِ الحقائقِ الثّابتةِ[1]، بينما أوغل أهلُ الكفرِ في غيِّ الضّلالِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(بِئْسَ) دونَ غيرِها من أفعالِ الذّمِّ:

المبالغةُ في الذّمِّ

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفعل (بِئْسَ)؛ لأنّه فعلٌ دالٌّ على المبالغة في الذّمّ[2]، وقد اختير الفعلُ في الجملةِ؛ لما فيه من حِدَّة الذَّمِّ، وسرعةِ الإيذاء في اللّفظ وقوّته، فهو أبلغُ من مجرّد وصف العذاب أو المصير بالسّوء؛ إذ يحمل دلالةَ التّقريع الشّديد، والتّوبيخ الحاسم، كما يُشعِر بسخط الرّبّ على أهل الكفر.

سِرُّ التّعبيرِ بالمصيرِ دونَ المرجعِ:

مآلٌ أخرويٌّ للإنسانِ مغايرٌ لما كان عليه من قبلُ

آثَر القرآنُ الكريمُ استعمالَ لفظِ المصيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ولم يستعمل المَرجع؛ لأنّ مُفردةَ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ أدقُّ لفظًا، وأعمقُ دلالةً في سياقِ الآية، فهو يدلّ على انقلابِ الشّيءِ إلى حالٍ مغايرةٍ لما كان عليه، نحو: صيّر الطّين خَزَفًا، ولا يُقال فيه مرجع الطّين؛ لأنّه لم يكن قبلَ ذلك خَزَفًا[3]. أمّا المرجع فيُستعمل لما يرجع إليه الشّيءُ على حالٍ كان عليها من قبلُ، فالآيةُ الكريمة تتحدّث عن مآلٍ أخرويٍّ لم يكن الإنسان عليه من قبلُ، بل هو انقلابٌ من حال الدّنيا التي عاشها إلى حال العذاب المُقيم في الآخرة، ولذلك كان اختيارُ لفظِ المصير أبلغَ وأوفقَ بالسّياق من لفظ المرجع الذي يوحي بالعَودة إلى حالٍ سابقة لا بالانتقال إلى حالٍ جديدةٍ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

مصيرٌ يشملُ كلَّ مَنِ انحرفَ عن سبيلِ الرّشادِ

(أل) في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ لاستغراقِ الجنسِ، فتدلّ على أنّ المصيرَ المَذكور لا يخصّ نوعًا أو حالةً مُعيّنةً، بل هو شاملٌ لكلّ مصيرٍ سيّءٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 389.
(2) ابن الأثير، البديع في علم العربيّة، ص: 91.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 492.

وعقابٍ أليمٍ، فيشمل كلَّ مَنِ انحرف عن جادّة الحقّ والصّواب من المنافقين والكافرين وأضرابهم.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

شمولِيّةُ المصيرِ الموبِقِ لكلّ ظالمٍ ومُذنِبٍ

اختير التّعبيرُ بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دون (بئس مصيركم)؛ ليكون الحُكم عامًّا شاملًا، لا يقتصرُ على المخاطَبين فقط؛ بل يشمل كلّ مَنْ ينال مثلَ هذا المصير الموبِق من المنافقين والكافرين؛ ممّا يزيد وقْعَ الكلام في النّفسِ حِدّةً وشِدّةً في الوعيدِ.

دلالةُ حذفِ المخصوصِ بالذّمِّ:

لدلالةِ السّياقِ عليه، وليَزدادَ الموقفُ هَوْلًا ورَهبةً

في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثمّة محذوفٌ، إذِ المُراد به في الأصل: بئس المصير النّار، أو جهنّم التي تصيرون إليها، فاستغنى البيان عن ذِكْرها صراحةً لما أتى به السّياق من وضوحٍ وتأكيدٍ[1]؛ فجاء الحذفُ ليُعزِّزَ دلالةَ الوعيد، ويُكثرَ وقعَ الذّمِّ، فيزدادَ الموقفُ هَوْلًا ورهبةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفديَة والعَدْل:

الفديَة أوسعُ دائرةً من العَدْل

عبَّر المولى سبحانه بلفظِ الفدية في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾، ولم يعبّر بالعَدْل؛ لأنّ الفدية أعظمُ من العَدْل وأوسعُ دائرةً؛ إذِ الفديةُ هي ما يُجْعَل بدلَ الشّيءِ ليعودَ به إلى حالته الأولى، سواءٌ كان ذلك البدلُ مثلَ المُفدى، أو أنقصَ منه. أمّا العَدْل: فهو خصوصُ ما كان من الفداء، مثل المُفدى تمامًا، لا يزيد ولا ينقص[2]؛ فجاء التّعبير بالفدية في الآية؛ لأنّ المقام مقامُ نفيٍ عامٍّ يشمل كلَّ ما قد يتوهَّمُه الإنسانُ يومَئِذٍ من فداءٍ، سواءٌ أكان مُعادِلًا لما يُفتدى به أم دونه؛ ليُبيّن أنّه لا يقبل منهم أيَّ بدلٍ، ولا أيَّ خلاصٍ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 179، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 212.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 399.

ولا أيَّ مهربٍ، فسَدَّ عليهم بابَ كلِّ فداءٍ مهما كانت صورتُه، وأغلق عنهم أبوابَ النّجاة جميعًا.

المأوى، والمكان، والمسكن:

الإيـــواءُ أعـمُّ، والمسكنُ أخصُّ

في حديثه عن المنافقين قال الحقّ ﷻ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ فجاء بلفظ (المأوى)، ولم يأتِ بلفظ (المكان) أو (المسكن)؛ لأنّ الإيواء في أصلِ معناه هو ضمُّ الشّيء إلى الشّيء مع ضعفٍ فيه، كالنُّصرة والرِّعاية والحياطة[1]، فجاء استعمالُه هنا على سبيل التّهكّم البليغ؛ إذِ المَأوى في الاستعمال المألوف يوحي بالحماية واللّجوءِ إلى مكانٍ آمنٍ، لكنّه في هذه الآية جاء مقلوبَ الدّلالة، فصار مأواهم النّارُ نفسُها، لا مأوى يحميهم، ولا مكانَ يُؤويهم، بل مقامُ عذابٍ دائم لا انفكاك عنه. ومعنى ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾: أي: مقرُّكُم ومنزلكم الذي تصيرون إليه، وتستقرّون فيه[2]، فكان اختيارُ اللّفظ أوقعَ في النّفوس، وأشدَّ تهويلًا، إذ يُصَوِّرهم وكأنّهم قد أُجيروا وأويَ بهم إلى النّار إيواءً لا خلاصَ بعدَه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو)، و(أوى).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 248.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"